بيان القول في القرآن

بعد ذلك تكلم على القرآن قال: والقول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل على الرسول المصطفى خير الورى ليس بمخلوق ولا بمفترى يحفظ بالقلب وباللسان يتلى كما يسمع بالأذان كذا بالأبصار إليه ينظر وبالآيات خطه يسطر وكل ذي مخلوقة حقيقة دون كلام بارئ الخليقة ما تكلم في هذه الأبيات على القرآن؛ وذلك لأنه قد طال كلام العلماء في تفصيل ذلك، وناقشوا بذلك المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم، فلما جاء هذا القرآن قالوا: إنه مخلوق خلقه كما خلق غيره من المخلوقات، فجعلوه مخلوقا، فأنكر عليهم أئمة السلف. وأول من أنكر صفة الكلام الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري في يوم عيد الأضحى، وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم؛ فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولا كلم موسى تكليما، -تعالى- الله عما يقول الجعد ثم نزل وذبحه، ومدحه ابن القيم في النونية، حيث يقول: ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان فلما قالوا: إن الله -تعالى- لا يتكلم لم يجدوا بدا في القرآن من أن يقولوا: إنه مخلوق، ثم قال ذلك الجهم بن صفوان ثم قاله بعده بشر المريسي ثم قاله بعده أحمد بن أبي دؤاد ثم إن ابن أبي دؤاد صار مقربا عند الخليفة المأمون فزين له هذه العقيدة حتى رسخت في قلب المأمون أحد خلفاء بني العباس، ثم زين له أن يَمتحن الناس، وأن يُكرههم على أن يقولوا: إن القرآن مخلوق؛ فامتحن الناس، وأوذوا، وسُجنوا، وقُتل بعضهم. وكان من أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - وذلك لأن له مكانة في النفوس، وكان الناس يترقبون ما يقوله، فلما كان كذلك قال له بعض من حوله: أجبهم وأنت مكره، فامتنع وأصر وصبر، ولكن مات المأمون قبل أن يؤتى بالإمام أحمد وتقلد هذه المقالة بعده أخوه المعتصم وهو الذي تولى تعذيب الإمام أحمد وجلده جلدا شديدا، حتى كاد أن يموت من شدة الجلد، وسجن وأطيل سجنه، ولكن مع ذلك كان يَجمع له علماء المعتزلة فيأتون بحجة فيبطلها، ويأتيهم بعشر حجج فلا يقدرون على الرد عليه، حتى أظهره الله -تعالى- وأظهر الحق في خلافة المتوكل . والحاصل: أن فتنة القول بخلق القرآن فتنة عظيمة، وقعت بسببها مصائب على الأمة، ولا يزال المعتزلة وعلى طريقتهم الآن الرافضة الموجودون في المملكة وعلى طريقتهم أيضا الإباضية الموجودون في عمان فإن هذا معتقدهم؛ أن القرآن مخلوق، وأنه ليس كلام الله، وأن الله تعالى لا يتكلم، قد ذكرنا لكم بالأمس أن مفتي أهل عمان الذي يقال له أحمد الخليلي ألف كتابا، سماه باسم يريد به أن يشتهر (الحق الدامغ)؛ مع أنه باطل متهافت، وضمنه كما ذكرنا ثلاث مسائل: إنكار الرؤية، وإنكار أن القرآن كلام الله، وإنكار قدرة الله -تعالى- على أفعال العباد، يقول: والقول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل كما صرح بذلك في قول الله تعالى: { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ } لم يقل: خلق الله، وقال -تعالى- في سورة التوبة: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} لم يقل: حتى يسمع ما خلقه، وقال -تعالى- في سورة الفتح: { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ } فجمع في هذه الآية بين كونه كلاما وقولا، وكذلك قول الله تعالى: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } ونحو ذلك من الأدلة، وكذلك ذكر أن الله -تعالى- له كلام، وأنه يتكلم كما في قوله تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ } { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } وغير ذلك من الآيات. فالقرآن كلامه منزل، قال تعالى: { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } لم يقل: خلق رب العالمين، قال بعض العلماء: إن الله ذكر الإنسان في القرآن سبعة عشر مرة، صرح فيها بأنه خلقه وبأنه مخلوق، وذكر القرآن في نحو خمسين موضعا أو أكثر، ولم يذكر أنه خلقه، من ذلك قول الله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ } آيتين متتاليتين { عَلَّمَ الْقُرْآنَ } ما قال: خلق القرآن. فالحاصل: أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، وللذين يقولون إنه مخلوق شبهات، بينها العلماء - رحمهم الله - ناقش بعضها ابن أبي العز في " شرح الطحاوية " وغيره. والقول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل على الرسول المصطفى خير الورى ليس بمخلوق ولا بمفترى منزل على الرسول قال تعالى: { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } والتنزيل مذكور في كثير من الآيات، قال تعالى: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } { تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } صرح بأنه تنزيل من الله، ولم يقل: خلق الله. (منزل على الرسول المصطفى خير الورى) المصطفى: من صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه خير الورى، ثم قال: (ليس بمخلوق) يعني: ننزهه أن يكون مخلوقا؛ فإنه من كلام الله -تعالى- ومن علمه، وكل ما هو من علمه فإنه ليس بمخلوق، (ولا بمفترى) ردا على المشركين الذين يقولون: افتراه، { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } وقالوا: { إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ } فكذبهم الله -تعالى- وأخبر بأنه ليس بمفترى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } .